المحاضرة الثالثة: المنهج الفينومنولوجي

عرف هوسرل فلسفته بأنها منهج متبع للبحث عن الحقيقة وفي كتابه:(الفلسفة كعلم دقيق) وصف الفلسفة بأنها علم نعرف به نقطة البدء الصحيحة. بأي شيء نبدأ ؟ أنبدأ بهذا الواقع الممتد أمامنا، والذي يفترض وجوده الرجل العادي، ولا يفكر مطلقا في أن يناقشه؟ لا . إن واقعية الرجل العادي واقعية ساذجة تجعل صاحبها مشدود الوثاق إلى الواقع مقيدا بسلاسل من حديد تقيد حريته وتعرقل نشاطه. أنبدأ بالذات، كما يذهب أتباع المذاهب الذاتية، ونقول إن العقل الإنساني هو الذي يخلق الأشياء أو العالم كله ويشكله تشكيلا عقليا ؟ لا .. إن كل فيلسوف يتوخى الصدق لا بد وأن يعترف بأن الأشياء مستقلة عن كل إدراك لها وسابقة عليه، علينا إذا أن نجد طريقا أو منهجا يخلصنا من ناحية من أخطاء وسذاجة الرجل العادي، ويخلصنا من ناحية أخرى من الارتماء في أحضان مثالية متطرفة، وهذا المنهج الجديد هو فلسفة الظاهرات أو الفينومنولوجيا.

أولا: مفهوم المنهج الفينومنولوجي

هذا المنهج مأخوذ من لفظ الفينومينولوجيا(Phenomenologie)، وهي تتكون من كلمتين: (فينومينPhenomene) وتعني الظاهرة. و (لوغوسLogie) ووتعني الدراسة العلمية لمجال ما، وبذلك يكون معنى الكلمة العلم الذي يدرس الظواهر. والحقيقة أن كل العلوم تدرس ظواهر، فهل معنى ذلك أن كل العلوم فينومينولوجيا؟ لا بالطبع، ذلك لأن المقصود من الظواهر في مصطلح الفينومينولوجيا ليس ظواهر العالم الخارجي، أي الظواهر الطبيعية الفيزيائية، بل المقصود بالظواهر التي تدرسها الفينومينولوجيا ظواهر الوعي، أي ظهور موضوعات وأشياء العالم الخارجي في الوعي، وبذلك تكون الفينومينولوجيا هي دراسة الوعي بالظواهر وطريقة إدراكه لها وكيفية حضور الظواهر في خبرته. لكن هناك علم آخر يدرس الوعي بالأشياء وطريقة إدراكه لها، وهو علم النفس، فهل تصبح الفينومينولوجيا إذن دراسة سيكولوجية للوعي ولكيفية إدراكه للأشياء؟ لا. لأن سيكولوجيا المعرفة تهتم بالحالات المعرفية باعتبارها حالات ذهنية، وترد هذه الحالات إلى الوظائف العصبية والسلوكية للمخ البشري، أما الفينومينولوجيا فليست مهتمة بما يصاحب عملية

المعرفة من حالات ذهنية أو وظائف عضوية ترجع إلى الجهاز العصبي، بل بكيفية إدراك الوعي للموضوع ووصوله إلى معرفة موضوعية ويقينية حوله، أي بالاستعدادات المعرفية الموجودة لدى الذات الإنسانية والتي تمكنها من تأسيس معرفة يقينية، وهذه الاستعدادات ليست سيكولوجية، بل مرتبطة بالوعي الخالص قبل أن يتصل بأي خبرة تجريبية.

ثانيا: خطوات المنهج الفينومينولوجي

يقدّم المنهج الفينومينولوجي ذاته باعتباره مجهودا لتجاوز الثنائيات الميتافيزيقية وفي مقدمتها ثنائية الذات والموضوع. ويقوم هذا المسعى من جهة على رفض النزعة الموضوعية التي تختزل المعنى في الموضوع المعطى، كما تقوم من جهة أخرى على رفض النزعة السيكولوجية التي تختزل المعنى في الذات. ولهذا فهي كمنهج تسعى إلى الربط بين الذات والموضوع بحيث المعنى لا يوجد في العالم بشكل مستقل عن الذات، كما أنه لا يوجد في الذات أو الوعي بشكل مستقل عن العالم. بل المعنى يتشكّل في انفتاح الذات عن العالم. والفينومنولوجيا تقوم على عملية رد العالم الخارجي في صورته العادية إلى الذات، لان هوسرل قد رأى أن من واجب الفيلسوف أن يقاوم انغماسه في العالم على هذه الصورة الساذجة التي تظهر منه، ومن أجل ذلك عليه أن يرد العالم إلى الذات، وعملية الرد هذه تشتمل على نوعين من الرد: الرد التصوري الذي يجعل الفيلسوف يتعلق بالماهيات أو التصورات. ويسقط من حسابه الوقائع الجزئية. والرد الشارطي الذي يتميز بوضع جميع الأشياء المادية بين قوسين، وبتعليق الحكم عليها أو بالأحرى على وجودها الواقعي، وهذا ما يسميه هوسرل بمنهج الأبوشيهEpoche الذي يتبعه الفيلسوف ليجعل من العالم مجرد ظاهرة وعلى الفيلسوف بعد ذلك أن يبحث في إعطاء معنى لهذه الظاهرة التي علق الحكم عليها وعلى وجودها الواقعي ووضعها بين قوسين.

وعلى ذلك فإن تسلسل خطوات المنهج الفينومنولوجي يكون كالآتي: العالم ـ العالم كمجرد ظاهرة ـ البحث عن معنى يعطيها الإجو لهذه الظاهرة، فمن واجب الفيلسوف حسب هوسرل أن يبتعد عن كل المحاولات المذهبية الإنشائية التي يقدم لنا فيها إنشاء نظريا للعالم، وعليه أن يقيد نفسه بوصف الظواهر التي أمامه فحسب، فالمنهج الفينومنولوجي منهج وصفي يقوم فيه الفيلسوف

بوصف الظواهر التي تبدو لشعوره ويقاوم في نفسه كل نزعة مذهبية نظرية، يقدم لنا العالم فيها في صورة كاملة منظمة وكأنه قد رسمه رسما دقيقا وأحاط بكل دقائقه وتفصيلاته. وفي هذا الوصف الذي يحاول أن يقدمه الفيلسوف للظواهر والعالم يلاحظ أن شعوره دائما متجه إلى موضوع آخر يوجد خارجه، وهذا هو ما يعنيه هوسرل بالقصد أو الاتجاه الذي يلعب دورا رئيسيا في فلسفة هوسرل ومعنى ذلك أن الشعور عند هوسرل يقصد موضوعه الذي يغايره في كل لحظة من لحظاته، وبه ميل طبيعي يحيله إلى هذا الموضوع ويبعده عن تأويل ذاته.

ثالثا: هدف المنهج الفينومنولوجي

لقد أعلن هوسرل من خلال كتابه: (أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجياالترنسندنتالية)،عن الغاية من مشروعه الفينومينولوجي، بما هو الفلسفة القادرة على إخراج الفكر الغربي الحديث من "أزمة المعنى والتوجه". وهي أزمة يربطها بسيطرة العلوم الحديثة ذات النزعة الموضوعية. لقد أصبحت نظرة الإنسان الحديث إلى العالم ابتداء من النصف الثاني من القرن 19 تتحدد بكيفية شبه تامة من قبل الأسلوب الذي تتبعه تلك العلوم في تناول موضوعاتها ومعالجتها. ولقد نجم عن ذلك التخلي عن الأسئلة الحاسمة بالنسبة للإنسان واتخاذ موقف اللامبالاة منها. وهي في عمقها أسئلة مرتبطة بمصير الإنسان، وبمعنى وجوده، وبطبيعة علاقته بالمحيط، ودور العقل في الحياة. إن العلوم الطبيعية لا تهتم بهذه الأسئلة لأنها واقعة في أسر النزعة الموضوعية التي تقوم على استبعاد كل ما هو ذاتي من اهتماماته. إذ العلمية حسب المعيار العلمي السائد، تقتصر على ملاحظة الوقائع وتسجيلها، وهذا ما يؤدي إلى استبعاد الأسئلة الأساسية المتعلقة بالوجود الإنساني، ويجعل تلك العلوم عاجزة عن مساعدة الإنسان في إعطاء معنى لحياته وأفعاله وتوجيهها.

والمظهر الثاني لأزمة العلوم الحديثة يتمثّل في افتقارها إلى الوحدة وإلى الرابط الموحّد بين مختلف تخصصاتها. وهذا المظهر الثاني يربطه هوسرل باستقلال العلوم عن الفلسفة، وهو يعكس في الوقت ذاته أزمة الفلسفة ذاتها والناجمة عن تخليها عن معناها الأصلي والذي يجعل منها معرفة صارمة ومؤسسة على منطلقات راسخة، معرفة تنفذ بعمق إلى كل أشكال الحياة الإنسانية وتطبع

ميادينها، فتقوم بوظيفتها المتمثلة في توجيه حياة الإنسان وفقا لمعايير العقل وفي استقلال عن الأحكام المسبقة. إن فقدان الثقة في الفلسفة بما هي علم كلّي منذ عصر النهضة، هو الذي أدى

إلى فقدان الثقة في العقل وفي قدرته التوجيهية للممارسة التاريخية للإنسان. وتحتد أزمة الفلسفة مع هيمنة النزعة الموضوعية على العلم ووضع الطابع العلمي والصارم للفكر الفلسفي موضع شك. وخطورة مثل هذا الموقف حسب هوسرل تتمثّل في كون أن التشكيك في علمية الفلسفة هذا يؤدي إلى الطعن في مصداقيتها مما يترتب عنه التخلي عن القضايا التي تنتمي إلى دائرة الفلسفة، وهو الذي يعني التخلي عن الأسئلة الكبرى للوجود البشري، أسئلة الحرية والمعنىوالتاريخ، والوقوع في أسر الحاجات اليومية للحياة العملية وآفاقها الضيقة. أزمة أوروبا إذن هي أزمة فقدان المعنى وتحديد الغاية، وهي في الوقت ذاته أزمة الفلسفة والعلم بما هما المبدأين المؤسسين للحضارة الغربية.